الاصل الاشتقاقي لكلمتي «تصوف و«صوفي»

للكلام في هذا الموضوع شقان كما يدل عليه العنوان ، الأول بحث تاريخي فيلولوجي في أصل كلمتي «تصوف» و « صوفي »، وفي أي عصر من العصور ظهرتا وانتشرتا في الاسلام والثاني في التعريفات التي وضعها الصوفية أنفسهم لهذين الاصطلاحين ، أي في المعاني التي اعتبروها مقومات للحياة الصوفية. أما «التعريفات التي وضعها كبار الصوفية – لاسيما الأوائل منهم – للتصوف والصوفي فهي في صميم دراسة التصوف وجوهرها . واذا تتبعناها تتبعا زمنيا وحللناها تحليلا دقيقا ، ظهر لنا التصوف في صورة جلية ، ووضح تطوره خلال التغيرات الكثيرة التي اكتنفته في البلاد الاسلامية التي ظهر فيها، والمؤثرات الاسلامية وغير الاسلامية التي أثرت فيه.

أولا، التصوف وخدمة الكعبة

من الآراء في سبب تسمية «صوفي أن رجلا قبل الاسلام اسمه الغوث بن بركان كان يخدم الكعبة وهبته أمه لخدمة البيت الحرام وانقطع للعبادة وخدمة الكعبة والعمل على نظافتها، وعنه أخذت قريش فكرة سدنة الكعبة، سمي ب«صوفه وعرف بهذا اللقب طوال حياته، ومن ثم اعتبر البعض أن لفظ التصوف مشتق من اسمه. ونقل هذا الرأي ابن الجوزي في كتابه (تلبيس إبليس). وقد ذهب جمهور المؤلفين في التصوف الى أن هاتين الكلمتين من الكلمات المستحدثة في الملة الاسلامية وان البغداديين هم الذين استحدثوهما، ولم يشذ عن هذا الاجماع الا ابو نصر السراج صاحب كتاب اللمع الذي يذهب الى أن اسم الصوفي أقدم من البغداديين. وقد استدل القائلون بأن اسم « الصوفي، مستحدث بأنه لم يكن من الألقاب التي أطلقت على الصحابة في عهد الرسول (ص)، فانهم لم يميزهم عن غيرهم سوى صحبة الرسول . وكذلك لم يتسم أهل الجيل الثاني باسم سوى « التابعين . وذلك لأن الاقبال على الدين والزهد في الدنيا في هذين الجيلين كانا عامين بين المسلمين ، فلم تكن هناك حاجة الى اسم خاص يمتاز به الرجل التقي .

ثانيا، التصوف وأهل الصفة

يرى بعض الباحثين اشتقاق لفظ الصوفي وبين أهل الصفة وهم فقراء المسلمين في الصدر الأول الإسلامي الذين انقطعوا للعبادة ولازموا مسجد النبي صلى الله عليه وآله في المدينة، وانتهج هؤلاء منهج الزهد في حياتهم مما استدعى لدى البعض أن يربط اشتقاق التصوف من الصفة، ومنهم محمد جلال شرف في كتابه دراسات في التصوف الإسلامي.

وهذا المدلول الاشتقاقي رفضه جملة من الصوفيين وأهل والتدقيق، ومنهم القشيري حيث لم يرَ أن هناك نسبة بين الصوفي والتصوف وبين (صفة) مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، كما هو الحال في رفضه ـ كما تقدم ـ لوجود نسبة بين التصوف ولبس الصوف. وكذلك جلال الدين همايي في مقدمة كتاب (مصباح الهداية).

وىرى ابن الجوزي أن نسبة الصوفي إلى أهل الصفة غلط لأنه لو كان كذلك لقيل صفي وليس صوفي، ثمّ يعلل رؤيته بأن هؤلاء القوم ـ أهل الصفة ـ إنما قعدوا في المسجد ،ضرورة وإنما أكلوا ضرورة فلما

فتح الله على المسلمين استغنوا عن تلك الحال. وأصحاب الطريقة الصوفية كانوا على العكس من ذلك لأنهم يتجهون نحو الزهد والتقشف عن طيب خاطر لا بحكم ظروف قد تحكم نهجهم ومسلكهم.

ثالثا: التصوف والصفا

يقول البعض بأن «التصوف مشتقة من لفظ «الصفاء الذي يعمر قلوب الزهاد. وكان السراج الطوسي أخذ بهذا القول في اكثر من موضع وقال: "إن العبد إذا صفا من كدر البشرية يقال له صوفي فهو صوفي" ويوضح بشر الحافي (ت ٢٢٧ هـ) أن أهم مواصفات الصوفي هي صفاء القلب من الحقد والضيق والهم والقلق. ومن أي رغبة من رغبات الحياة المتمثلة في والمنصب والشهرة بقوله: ((الصوفي من صفا قلبه الله)). ويوضح لنا ذو النون المصري (ت: ٢٤٥هـ) بأن أحوال ومعاملة وكلام الصوفي هي حقيقته الواضحة. وأن أحواله ومعاملاته وكلامه تدلّ على ما في داخله بقوله: «الصوفي هو إذا نطق كان كلامه عن حاله. فهو لا ينطق بشيء إلا إن كان هو ذلك الشيء.. وإن أمسك عن الكلام عبرت معاملته عن أحواله وكانت ناطقة بقطع علائقه الدنيوية عن حاله. ويستدلون على ذلك بقول أحد المتصوفة وهو أبو الفتح البستي حيث قال

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا ..... وقد ظنوه مشتقا من الصوف

ولست أنحل هذا الاسم غير فتى ..... صافى فصوفي حتى لقب الصوفي

وذكر هذا المعنى بعض من عرف حقيقة التصوف كأبي الحسن علي بن عثمان في كتابه "كشف المحجوب" واعتبر أن اللغة لا تساعد على هذا الأمر وهي بعيدة عنه. وكذلك همايي في مقدمة كتاب «مصباح الهداية وقال:" كذلك يعتقد باشتقاق الصوفي من الصفا والصفوة والصفر والصفي. ويرفضها لأنها لا تخضع لقواعد الاشتقاق" فلو كان الصفا هو مصدر كلمة صوفي لقيل صاف أو صافي. وليس صوفي. ولا يمنع أن يكون الصفاء القلبي من جملة أحوال أهل التصوف.

رابعا: التصوف والصوفانة

رأى البعض أن الصوفية والصوفي مشتقة. من مصافات و«صوفانة وهي نبات صغير الحجم. وعرفها البعض بأنها عشبة زغباء قصيرة أو نبات عشبي من الفصيلة المركبة يظهر له زغب يشبه الصوف. ومنشأ الربط بين التصوّف وهذه النبتة من حيث اشتقاق التسمية هو اكتفاء أهل التصوف بنبات الصحراء. وهذا الربط رفضه جملة من الباحثين منهم همايى في مقدمة كتاب مصباح الهداية. وبالإضافة إلى ذلك فإن هذا الاشتقاق لا تساعد اللغة على الأخذ به لأن صوفانة على وزن فعلانة. في حين أن صوفي على وزن فوعي. فالاشتقاق غير صحيح. وإذا كان بعض الزهاد وأهل التصوف قد اشتهروا باقتنائهم لهذه النبتة. فهذا الأمر لا يقتضي التعميم على الجميع.

خامسا: التصوف وصوفيا (سوفيا)

ربط بعض الباحثين بين كلمة التصوّف والصوفي العربية وكلمة "صوفيا" اليونانية. يقول أبو ريحان البيروني: ... إن كلمة «الصوفي ليس لها أصول عربية بل هي تعود إلى صوفي وصوفيا اليونانية

التي تعني الحكمة. ووجه العلاقة هو أن صوفيا هي الحكمة من حيث إنها تأملات عقلية ونظرية. والصوفية حكمة من حيث إنها تأملات قلبية باطنية يصل لها السالك ليس عن طريق إمعان النظر بل عن طريق الرياضة الروحية. فوقع الخلط بين هذه التأملات العقلية والقلبية ونسبوا أحد المعنيين إلى الآخر.

وأخذ بهذا الرأي الاستاذ جوزيف فون هامر الذي يقول ان كلمة صوفي مأخوذة من كلمة « جمنوسوفيست Gymnosophist ومعناها الحكيم العاري » وهو لفظ يوناني أطلقه اليونان على بعض حكماء الهنود القدماء الذين اشتهروا بحياة التأمل والعبادة وليس للاستاذ فون هامر دليل سوى تقارب اللفظين في النطق. وذهب الى هذا الرأي الأديب اللبناني جرجي زيدان (ت ١٩١٤م) قال:إن سوفيا (صوفيا) ومعناها الحكمة فيكون الصوفية قد لقبوا بذلك نسبة إلى الحكمة، لأنهم كانوا يبحثون عنها.

إلا أنه لا يمكن الموافقة على ما ذهب إليه البيروني وزيدان، لأن كلمة الصوفي ليس لها ارتباط من حيث المعنى بكلمة صوفيا التي تفيد معنى الحكمة والعلم. هذا فضلا عن أن نشأة التصوف كانت سابقة لتاريخ حركة الترجمة والنقل التي حملت إلى اللغة العربية آثار اليونان وفلسفتهم، وإن كانت كلمة التصوف قد ظهرت إبان ذاك العصر.

سادسا: التصوف و«الصف

يعتبر البعض أن أهل التصوف هم طليعة الناس وفي مقدمتهم في الوقوف على الصف الأول لطاعة الله عز وجل ويربط بين هذا الوقوف وبين أسباب تسميتهم بالصوفية. وينقل الغزالي في إحياء علوم الدين قولا مفاده أن الصوفية عرفوا بهذه النسبة (لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عزّ وجلّ بارتفاع ،هممهم وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه). إلا أن هذا الكلام يندرج في نطاق الآراء التي لم يعول عليها الباحثون في التصوف، بسبب عدم استقامته اللغوية. فضلا على أنه لم يرد في أقوال رجال التصوّف ما يؤيده. كما أنه لو جاز لنا أن نقول بصحته لقلنا ـ صف ـ صفي وليس صوفي .

سابعا: التصوف والصوف

إن التسمية ناشئة من الصلة بين التصوف واشتقاق الكلمة من لبس الصوف حيث كان الصوفية يتميّزون عن سائر الناس ولاسيما المسلمين بلباس الصوف، وهذا ما أورده السراج الطوسي في كتابه «اللمع في التصوف ،الصوفية عندي نسبوا إلى ظاهر اللباس، ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال التي بها مترسون، لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام والصديقين والمساكين والمتنسكين. وإلى هذا الاتجاه مال ابن خلدون فقال: إن القوم ـ أي الصوفية ـ مختصون بلبس الصوف، لما كانوا عليه من مخالفة لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف". ونفس هذا الأمر أيده الحر العاملي حيث قال:"هذه التسمية وضعت في الأصل للانتساب إلى الصوف". وأيد هذا المعنى جلال الدين همايي حيث رأى أن "الصحيح هو أن تكون كلمة الصوفي مشتقة من الصوف، ولأن المتصوفة كانوا يلبسون لباسا خشنا أطلق عليهم هذا الاسم .

اما القشيري فيقول ، معلقا « وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق ، والأظهر أنه كاللقب ، فأما من قال انه من الصوف ، وتصوف اذا لبس الصوف ـ كما يقال تقمص اذا لبس

القميص ـ فذلك وجه . ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف وكذلك هو رأي أبو ريحان البيروني الذي لم يعتقد بأن كلمة «الصوفي مشتقة من الصوف .وفي جميع الأحوال فإن الصوف علامة على الزهد والتقوى وعدم الاعتناء بالدنيا، ويعتبر التصوف طريقة للزهد والقناعة، وترك الدنيا، وقد كان منذ القدم أسلوبا ومنهجا للزهد والعابدين المتمسكين بالدين.

وفي مقال ماسينون دائرة المعارف الاسلامية عن مادة « تصوف ما خلاصته ، أن التلقيب بالصوفي مفردا ظهر في التاريخ في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري وسمى به جابر ابن حيان الكوفي صاحب الكيمياء الذي كان يدعو الى مذهب خاص في الزهد ، وأبو هاشم الكوفي (الصوفي). اما كلمة الصوفية بالجمع فظهرت حوالي سنة ١٩٩ هجرية ، توفى عبدك في بغداد سنة ٢١٠ه.